باكورة الادب المقارن التطبيقي

القسم الثاني

كلا القرينين معتز بصاحبه
عليه إن نال منه العجز يتكل
وكل جنس له نقص بمفرده
اما الحياة فبالجنسين تكتمل[١٩]

ثم يقول في قصيدة اخرى :

فالمراة اليوم للمرء في الحقيقة مثل
وانها ذات عقل كما له هو عقل[٢٠]

وعندما يتاثر الشاعر بآراء الادباء والكتاب الغربيين في الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع، يعود ليقول اشعاراً في تساوي دور المراة والرجل في بناء هيكل الشعب منها :

يحمل الشعب فريقان اناث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير[٢١]

لقد تناول شاعرنا الزهاوي هذه المرة موضوع مساواة المراة بالرجل في ميادين الحياة المختلفة بعمق اكثر وروح عصرية متجددة؛ فيدعو الى رفع مستوى الشعب وارتقائه في سلم الحضارة على اكتاف ابنائه اناثاً وذكوراً، اي عدم تخلف المراة عن أداء دورها الحضاري في بناء صرح المجتمع الجديد، «وهذا هو علاقة الشاعر بالمجتمع حيث يستقي تجربته الشعرية من محيطه الاجتماعي او الانساني المعاصر[٢٢]» ويؤثر بدوره في حياة المجتمع بتوجيه ابنائه نحو التقدم والرقي.

وعندما نعود الى ساحة الادب الكردي، نرى «بيكەس» قد تاثر الى حدبعيد بمضمون هذا البيت من شعر الزهاوي، وقد وظف مغزاه في موضوع شعري آخر لا كموضوع سلفه في ميدان الشعر الاجتماعي الصرف، الا وهو موضوع الشعر السياسي كسلاح لمحاربة الاستعمار واعداء الوطن، فيقول في قصيدته الشهيرة «دوحة الحرية» التي نظمها بعد احداث وثبة كانون الوطنية في العراق التي وقعت عام ١٩٤٨ :

داری ئازادی بەخوێن ئاونەدرێ قەت بەرناگرێ
سەربەخۆیی بێ فیداکاری ئەبەد سەر ناگرێ

نێرو مێ هەردوو بەجووتە بۆ وەتەن هەوڵێ نەدەن
دووڕە دەرچوونی لە دیلی مەل بە بانگ ناڤرێ![٢٣]

واليكم ترجمة هذين البيتين لنرى كيف وظف «بيكه‌س» نفس مضمون شعر الزهاوي في ذلك البيت ولكن بعد تطويره و استعماله في غرض شعري آخر وهو الغرض السياسي، فاعطى بذلك مضمون شعره بعداً اكبر وعمقاً اكثر:

اذا لم تروَ دوحة الحرية بالدماء فلا تثمر
وان استقلال البلاد لايمكن تحقيقه بدون تضحيات

اذا لم يناضل الذكور والاناث سوية في سبيل الوطن
فمن المستبعد ان يتحرر من العبودية
لأن الطائر لايستطيع ان يُحلّق بجناح واحد !!

بعد قراءة هذا النموذج من شعر «بيكه‌س» يظهر لنا مدى تاثره بشعر الزهاوي ولكن كما قلنا في تجربة ادبية جديدة، الا وهي تجربة الشعر السياسي التي بلغت اوجها اواخر ايام حياته في عام ١٩٤٨ في العراق.

ثانياً: محور الشعر السياسي

إن الشعر السياسي في الادب المعاصر اصبح غرضاً بارزاً من اغراض الشعر الحديث، فقد اشتد اواره بعد الاحتلال الاجنبي للعراق وبعد ماعاناه الشعب من نير عبودية الاستعمار والتخلف وتجزأة الامة. فهما ان الشعراء هم الطليعة الواعية من الشعب، فقد اسهموا اسهاماً متميزاً وكبيراً في استنهاض همم جماهير الشعب وبث روح الحماسة في نفوسهم، وان شيوع هذا الغرض في شعرنا لاشك يدلل على وعي شعرائنا الملتزمين بقضايا امتهم ووطنهم وقد لانجد شاعراً معروفاً لم ينظم الشعر في هذا الغرض ولنا في الزهاوي والرصافي وغيرهما امثلة حية في هذا المضمار[٢٧].

ففي هذا المحور الهام يمكن ان نتخذ من الرصافي وقصيدة مشهورة له بعنوان «يامحب الشرق» نموذجاً حياً للشاعر والشعر السياسي في الربع الاول من القرن العشرين. فقد القى شاعرنا الوطني قصيدته هذه في حفلة اقامها «الحزب الوطني» ببغداد لتكريم «المستر كراين» المثري الامريكي الشهير بمناسبة مجيئه الى بغداد سنة ١٩١٩[٢٩] جاء فيها:

يامحب الشرق !!

جئت يامستر كراين
فانظر الشرق وعاين
فهو للغرب اسير
اسرٌ مديونٍ لدائن
إن هذا الشرق والغرب لمغبون وغابن
فترى الشرق تجاه الغرب يسعى سعيَ ماهن[٣٦]
وترى الغرب عليه
واقفاً موقف خائن
غاصباً منه الموانى
شاحناً فيه السفائن
فهو يمتص دماء الشرق من كل الاماكن
افهذا يامحب الشرق افعال المهادن؟[٣٧]
اين ماقاله «ولسن»[٣٨] يا «مستر كراين»؟![٣٩]

إن الرصافي كان يفكر في ذلك الوقت تفكير مثقف سياسي متمرس، خبر الاعيب الاعداء المحتلين، لذا ذكر في قصيدته كل صفات المستعمرين (بكسر الميم) وما يفعلونه تجاه الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) ولا سيما تجاه شعوب الشرق من نهب لثرواتها ووضع قيد الذل والعبودية في ارجل بنيها، فيعتبر الراسمالي الامريكي هذا ممثلاً للاستعمار الغربي، لذا وضع شاعرنا الوطني إصبعه في عينيه وذكّره بمبادىء «ولسن» رئيس الولايات المتحدة الامريكية حينذاك، والتي اعلنها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، وقد حاول في مؤتمر الصلح بفرساي أن يضع اسس مجتمع عالمي جديد يقوم على مبدأ حق تقرير المصير للشعوب.[٣٠] فكان شاعرنا الرصافي مرهف الحس، شاعراً بالمسؤلية تجاه الدفاع عن وطنه وشعبه وما يدعيه المستعمرون وما يفعلونه في البلدان المحتلة ويستمر في قصيدته عن كشف اعمال الاستعمار المشينة ويقول:

لم يكن ولسن فرداً إن في الغرب ولاسن[٣١]
فعلام الغرب لاينفك للشرق مُضاغن[٣٢]
كم يسوم الغربُ أهلَ الشرق خسفاً ويخاشن[٣٣]
والى كم ساسة الغرب تداجي و تداهن
إن في الشرق تجاه الغرب نيراناً كوامن
واذا قامت حروب في بني الشرق طواحن
فمن المسؤول عن ذلك يامستر كراين ؟

بعد ان يفضح شاعرنا الرصافي أعمال الاستعمار وسلوكه تجاه شعوب الشرق عامة ويلوح بوجود نار كوامن لحروب طاحنة بين الشعوب المستعبدة ضد الاستعمار الغربي والاستعباد في سبيل التحرر والانعتاق ، يأتي الى آثار حكم المستعمرين في وطنه العراق فيقول :

واذا تسال عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضرع غربي الملابن[٣٤]
هو ذو وجهين وجه ظاهر يتبع باطن
قد ملكنا كل شيىء نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لانملك تحريكاً لساكن
افهذا جائز في الغرب يا « مستر كراين » ؟

عندما نستقرىء بين قصائد شعراء الكرد المعاصرين للرصافي عن نماذج للشعر السياسي تقترب مضامينها واهدافها من مضمون قصيدة الرصافي نجد نماذج ناجحة في هذا الغرض : كقصيدة «عصبة الامم» للشاعر الشيخ سلام (١٨٩٢ ـ ١٩٥٩) وقصيدة «سبعة وعشرين عاماً» للشاعر «بيكه‌س» .

إننا نتخذ من قصيدة «بيكه‌س» محوراً لمقارنتنا مع قصيدة الرصافي لتشابههما الاكثر في الغرض والتوجه والمضمون العام، فنجري هذه المقارنة بين القصيدتين باعتبارهما قد كتبتا بلغتين مختلفتين وفي إطار أدبين قوميين بينهما صلات تاريخية و ثقافية بحكم المجاورة والمعايشة وان عوامل التاثير والتاثر موجودة بينهما، لذا فلا غرابة أن ينحى شاعر كردي منحى شاعر عربي في الموقف والتوجه الفكري والغرض الشعري وبعض صوره الفنية ومضامينه الادبية .

إن قصيدة الرصافي قد أُلِفَت عام ١٩١٩ والقيت أمام احد رموز الاستعمار الغربي لتفضح الاعيب المستعمِرين واعمالهم المشينة تجاه الشعوب المستعمَرة وإن قصيدة «بيكه‌س» قد نظمت عام ١٩٤٥ لتلقى في حفل نوروز في ذلك العام أمام رمز من رموز الاستعمار الغربي أيضاً الا وهو «المستر ادموندس» المستشار البريطاني لوزارة الداخلية العراقية حينذاك وزيارته لمدينة السليمانية بمناسبة انتهاء مهام عمله وعودته الى بريطانيا، وكان حاضراً في ذلك الاحتفال .

فقد وقف «بيكه‌س» يفضح الاستعمار الانكليزي بالذات في قصيدته هذه مديناً اياه باستغلال شعبنا واضطهاده «سبعة وعشرين عاماً» ومعلناً ان شعبنا لن يرضى به وبحكمه[٣٥] لأنه خبر الاستعمار بوعوده الكاذبة والاعيبه واعماله الغادرة تجاه الشعب الكردي وشعوب الشرق المستعمرة قاطبة، فأنشد يقول :

« ١ »

بيستو حەوت سالّە من رەنجبەرى تۆم
بە نانو ئاوو جلو بەرگى خۆم
خزمەتم كردى لە ئێرانو رۆم
لە پێناوى تۆ شكاوە ئەستۆم
كەچى هێشتا هەر دیلو رەنجەرۆم
گوناهم چیبوو بەم دەردەت بردم ؟
بۆچى بە ناهەق وا سووكت كردم ؟

« ٢ »

بیستو حەوت سالّە من ئەرەتێنى !
بە فرۆفیشالّ ئەم خەلەتێنى !
رۆژێ نەوعێكم هەلّ ئەپەرێنى
بۆ مەرامى خۆت ملم ئەشكێنى
كە ئیشت نەما وازم لێ دێنى !
گوناهم چیبوو بەم دەردەت بردم ؟
بۆچى بە ناهەق وا سووكت كردم ؟!

« ٣ »

بیستو حەوت سالّە تالّە ژیانم

له ژێر دەستی تۆ زۆر پەرێشانم
له ئینسان ناچم عەینی حەیوانم
کەی ڕزگار ئەبم مانی وێرانم ؟
وا بە خۆت ئە لێیت : « حامی ، گەلانم !
گوناهم چیبوو بەم دەردەت بردم ؟
بۆچی بە ناهەق وا سووکت کردم ؟

« ٤ »

بیستو حەوت ساڵە دڵم لێت پڕە
ئەحوالم بەدەست تۆوە زۆر شڕە
صەد بەڵێن بدەی لە لای من تڕە!
بەسیەتی ئیتر ئەم وڕە وڕە!!
نۆکەریت ناکەم ورگم هەڵدڕێ !
گوناهم چیبوو بەم دەردەت بردم ؟
بۆچی بە ناهەق وا سووکت کردم ؟

« ٥ »

من ڕەنجبەرێکم پاک و بەسە زمان
هەوڵم بۆ داوی بەدڵ و بەگیان ،
بەسیەتی ئیتر درۆو تەفرە دان !
وا ئەبێ عەدل و ئینساف و وێجدان ؟
ئەمکەی بە دیلی (.....) و ئێران !
گوناهم چیبوو بەم دەردەت بردم ؟
بۆچی بە ناهەق وا سووکت کردم ؟ !

بخبزي ومائي وملبسي دون أجر
وقد خدمتك في ايران وفي بلاد الروم !!
من اجلك تحطم عنقي
ورغم كل هذا فانني اسير ذليل !
فماذا كان ذنبي حتى أبتليتني بهذه النوائب ؟
ولماذا ذللتني هكذا دون وجه حق ؟!

« ٢ »

سبعةٌ وعشرون عاماً مضت وانت تطاردني
تتحايل عليّ بالكذب والخداع
ترقصني حسب اهوائك كل يوم
إنك تحطم عنقي في سبيل الوصول الى غايتك
ولما ينتهي عملك بي ، تتركني وتلفظني !
فماذا كان ذنبي حتى أبتليتني بهذه النوائب ؟
ولماذا ذللتني هكذا دون وجه حق ؟!

« ٣ »

سبعة وعشرون عاماً مضت وحياتي كلها مرارة وشقاء
إنني ضجر مهموم في ظل حكمك .
كانني حيوان لا اشبه الانسان !!
فمتى اتحرر من نير عبوديتك ؟!
وانت الذي تدعي بانك «حامي الشعوب» !!
فماذا كان ذنبي حتى أبتليتني بهذه النوائب ؟
ولماذا ذللتني هكذا دون وجه حق ؟ !

« ٤ »

سبعة وعشرون عاماً مضت وقلبي مقهور منك
لأن حالي بين يديك يرثى لها .
إذا وعدتني مئة وعد فلا تساوي وعودك عندي شيئاً
لذا كفى هذا التبجح والوعود الكاذبة !
فلو تبقر بطني فلا أكون لك عميلاً !!
فماذا كان ذنبي حتى أبتليتني بهذه النوائب ؟

والیکم ترجمة هذه السباعيات المختارة من قصيدته المؤلفة من «أحد عشر سباعياً» ليقف قراء العربية على مضمون القصيدة وموقف الشاعر من الاستعمار ووعوده الكاذبة وأعماله المشينة تجاه الشعوب :

« ١ »

سبعةٌ وعشرون عاماً مضت وانا اكدح من اجلك

ولماذا ذللتني هكذا دون وجه حق ؟!

« ٥ »

إني امرؤ كادح صافي القلب فقير الحال
سعيت من اجلك بكل جد وتفان
لقد كفاني كذبك وخداعك
اهكذا يكون العدل والانصاف والوجدان ؟
ان تجعلني اسيراً ذليلاً لايران !!
فماذا كان ذنبي حتى ابتليتني بهذه النوائب ؟
ولماذا ذللتني هكذا دون وجه حق ؟!

بعد قراءة هذه السباعيات من قصيدة «بيكەس» يظهر لنا أن الشاعر قد تأثر في نظمها بقصيدة «يامحب الشرو» لمعروف الرصافي الموجهة الى «المستر كراين» ممثل الرأسمال الغربي قبل ستة وعشرين عاماً في سنة ١٩١٩ الى حد ما وان مواطن التأثر والالتقاء بين الشاعرين وقصيدتهما تكمن في النقاط التالية :

١ـ إن كلتا القصيدتين موجهتان الى رمزين من رموز الاستعمار الغربي .

٢ـ كلا الشاعرين يفضحان الاستعمار في اعماله المشينة من استعباد واستغلال للشعوب المستعمرة المغلوبة على أمرها .

٣ـ في كلتا القصيدتين اشارات واضحة الى استغلال المستعمرين للشعوب .

٤ـ كلا الشاعرين يكشفان حقيقة الوعود الكاذبة التي يقطعها المستعمرون على انفسهم باعطاء الشعوب المحتلة حقوقها القومية في التحرر والانعتاق . حيث يفضح الرصافي حقيقة (مبادىء ولسن) لبناء مجتمع انساني جديد خال من الاستعمار !! كما يفضح «بيكەس» وعود الانكليز الكاذبة باعطاء الشعوب المستعمرة حريتها وادعائهم بانهم «حماة الشعوب الضعيفة» !!

كل هذه الالتقاءات بين الشاعرين وقصيدتيهما جعلتنا نقارن بين تينك القصيدتين كنموذج (للادب المقارن التطبيقي) بين الشعر العربي والشعر الكردي في فترة زمنية متقاربة . ويجب أن نقول حقيقة وهي أن «بيكەس» قام بتجربة أدبية ناجحة، لأنه لم يقم بالاقتباس المباشر من مضامين قصيدة الرصافي بل اتخذ منها حافزاً ومصدر ايحاء لقصيدته التي تعتبر من اشهر قصائده السياسية، فصاغها في قالب كردي معاصر بتعابير سلسة مقبولة ومضمون جديد يتماشى مع روح العصر وطموحات الشعب الكردي في الحرية والحياة الكريمة .

وختاماً آمل أن يحظى بحثي هذا في باكورة الادب المقارن التطبيقي بين أدبين قوميين لهما صلات تاريخية وحضارية متينة بجلب نظر متتبعي الأدبين ونقادهما الى هذا الموضوع الذي لم يتطرق اليه النقاد العرب والكرد إلا نادراً وفي إطار محدود .

المصادر :

١٩ـ جميل صدقي الزهاوي ـ الاوشال ـ بغداد ١٩٣٤، ص٧٠
٢٠ـ عبدالرزاق الهلالي ـ ديوان الزهاوي ـ بيروت ١٩٧٢، ص٣٢٢
٢١ـ نفس المصدر، ص٣٨١
٢٢ـ د. محمد مندور ـ الادب ومذاهبه ـ القاهرة ١٩٥٧، ط٢، ص١٣
٢٣ـ محەمەدى مەلاكەريم ـ ديوانى بيكەس ـ چ٢، ١٩٨٠، ل ٨٢
٢٤ـ د. جلال ايوب صبري وآخرون ـ تاريخ الادب العربي الحديث ـ بغداد ١٩٨٢، ص٤١، ٤٢
٢٥ـ أحمد أبوسعد ـ الشعر والشعراء في العراق ـ بيروت ١٩٥٩، ص ٧٤
٢٦ـ ماهن : الخادم ، العبد .
٢٧ـ المهادن : المسالم الذيّ بينك وبينه هدنة .
٢٨ـ ولسن : كان رئيس الولايات المتحدة الاميركية من ١٩١٣ الى ١٩٢١
٢٩ـ أحمد أبوسعد ـ الشعر والشعراء في العراق ـ بيروت ١٩٥٩، ص ٧٤
٣٠ـ الموسوعة العربية الميسرة ـ القاهرة ١٩٧٢، ط٢، ص١٩٦٣
٣١ـ ولاسن : جمع ولسن
٣٢ـ مضاغن : حاقد .
٣٣ـ يسوم : يذّلُ ، الخسف : الذُّلُّ .
٣٤ـ الملاين : جمع الملين، وهو قالب يوضع فيه اللبن .
٣٥ـ د. عز الدين مصطفى رسول ـ الواقعية في الادب الكردي ـ بيروت ١٩٦٦، ص ١٤٤
٣٦ـ محەمەدى مەلاكەريم ـ ديوانى بيكەس ـ بغداد ١٩٨٠، چ٢، ل ٧٥ـ٧٨ .
٣٧ـ النوائب : جمع النائبة ، المصائب .